مبادئ الوطنية والكرامة

فى دروس التاريخ بالمدرسة

بقلم الانسة المهذبة حميدة قطب

من أهم العوامل التى تبعث فى نفس الفرد الوطنية والاعتزاز بالقومية وبالكرامة الشخصية، أن يعرف أنه من أمة عريقة قوية ، تاريخها مملوء بالبطولة والعظمة والسيادة . ومن أهم مايضعف فيه روح الوطنية والقومية و يضطره إلى احتقار نفسه ووطنه أن يعرف أنه من أمة ضعيفة حقيرة ، لم تكن تتزحزح عنها أقدام غاصب حتى ترتمى تحت أقدام غاصب . لهذا كان التاريخ أهم مايجب أن يوجه إليه الاهتمام فى التربيـة ليتلقى التلميذ مبادئ الوطنية والكرامة فى حجرات المدرسة قبل أن يشب وتتكون آراؤه .

ويخيل إلىّ أنه لو حذفت دراسـة التاريخ من المدارس المصرية لكان هذا خيرا للأمة من تعليمه لأبنائها فى الدراسة الابتدائية والثانوية على هذه الصورة التى تزعزع فى نفوسهم كل اعتداد بمصريتهم و بشخصيتهم ، وتجعلهم يحتقرون أنفسهم ووطنهم و يشعرون أنهم خدم لهؤلاء الأجانب الأسياد ، و يعتقدون أن مصر أمة ضعيفة صغيرة خلقت لتحتلها الأمم الكبيرة وتكون تحت سيادة أو تحت حماية دوله عظيمة ، بحيث لاتملك التصرف حتى فى شؤونها الداخلية ، ولا تستطيع أن تبدى رأيها فى مصيرها . فمثل هـذه الأمة فى نظر هؤلاء الصغار لا تستحق منهم الاحترام ولا الجهاد ولا التضحية فى سبيلها .

إن طبيعة سن التلاميذ فى المدارس الابتدائية والثانوية تجعلهم يحبون البطولة والأبطال بقدر مايحتقرون الأمة الضعيفة المحتلة التى لاجيش لها ولا أسطول يدافعان عنها إذا اعتدت عليها دولة أخرى ، وإنمـا يدافع عنها الأجانب أصحاب السيـادة فيها ، وهم فى هـذه السن لا يستطيعون أن يقدروا الظروف التى رمت بهذه الأمة فى أحضان الاحتلال .

لهذا كان على وزارة المعارف إذا أرادت أن تنشئ لمصر جيلا تعمر نفسه الوطنية والقوة والاعتداد ، أن تغير منهج التاريخ التى تدرس الآن . ولا أقصد بهذا أن تغير تاريخ مصر أو تستبدل به تاريخ أمة أخرى ! إنمـا أقصد أن تنظمه وتقسمه على حسب عقلية التلاميذ فى سنيهم المختلفة ، وأن تدرسه بطريقة تشعرهم بأنهم من أمة عظيمة عريقة قوية بين أمم العالم.

يدرس تلاميذ المدارس الابتدائية الآن تاريخ فترة من أسوأ الفترات وأضعفها فى تاريخ مصر، وهى الفترة الواقعة ما بين حكم العثمانيين والعهد الحديث؛ وهذه فترة ضعف وانحلال فى قوى الأمة المادية والمعنوية لم تنته إلا من عهد قريب . ففيها عصر الاحتلال التركى ، وهو عصر يجب ألا يعرفه الأطفال ، لما فيه من تحقير وتصغير لمصر والمصريين وإهانة لكرامتهما وإذا لم يكن بد من تدريسه لهم فيجب أن يدرس بطريقة تسخطهم على المعتدين وتشعرهم أن مصر مهما كانت محتلة فهى أمة عظيمة لا تقبل أن تهان كرامتها ، لا أن يدرس على هذه الطريقة التى تشعرهم بأن هذا الاحتلال وهذه الإهانة كانا أمرا طبيعيا لا يثير فى نفوس المصريين أى تذمر بل يقابلونه بالرضا والاستسلام .

وفى كتاب التاريخ للسنة الرابعة الابتدائية أن السلطان العثمانى وضع لحكم مصر نظاما يضمن به بقاءها على الدوام ولاية عثمانية، وأن من أهم عيوب هذا النظام أن مدة الوالى كانت قصيرة، ولذا كان الولاة يتممون بجمع المال لأنفسهم ويهملون مصلحة البلاد فكثر النزاع بين الوالى والديوان ، ولا يذكر المؤلفون بعد ذلك أثر هذا النظام فى نفوس المصريين وتذمرهم وإحساسهم بحرمانهم حتى من مجرد الاشتراك فى حكم بلادهم التى يجب أن يحكموها بأنفسهم، ليعرف التلاميذ أن الشعب المصرى لم يكن راضيا ولا مستسلما بل كان يتحين الفرص لإظهار سخطه وتذمره .

وفى هذه الفترة أيضا يدرس تاريخ الحملة الفرنسية على مصر ، ويظهر فيه ضعف المصريين وانحلال أخلاقهم ورغبتهم فى ممالأة الفاتح بمحاولة إرضائه والتقرب اليه وخمود كل عاطفة وطنية فى النفوس وموت كل نزعة استقلالية فى القلوب .

ثم تكمل إضعاف روح التلاميذ الوطنية بعصر الاحتلال وما سبقه من تدهور الحالة الاقتصادية واستدانة مصر وتدخل الأجانب فى شؤونها الداخلية ، دون أن تثير فى نفوسهم التمرد على الاحتلال، بل تقول لهم إنه قد أدخل فى مصر إصلاحات عدة كتخفيض الضرائب وتحرير الفلاح وتحسين وسائل الرى . فلماذا إذن يبذلون جهدا للاستقلال وتلك فضائل الاحتلال ؟ !

ان هذا البرنامج كان صالحا لعهد الاحتلال، لأنه يجيب رغبته فى إضعاف الروح الوطنية والقومية وحب الاستقلال فى الشباب الذين تقوم على أكتافهم كل حركة وطنية لتحرير بلادهم .

والتلاميذ الصغار الذين يدرسون تاريخ بلادهم بمثل هذه الطريقة لا يمكن أن تستشعر نفوسهم العزة القومية ولا الكرامة الوطنية، حتى إذا شبوا وفى نفوسهم بذور الضعف والدعة

والخمول نعيب عليهم هذا وتتهمهم بأن هذا كامن فى طبيعتهم ، مع أننا لو بحثنا عن سببه لوجدناه فى دراسة التاريخ على هذه الصورة .

يحسن ألا يدرس التلاميذ فى المدارس الابتدائية إلا سيرة الأبطال القوميين فى أسلوب روائى مشوق يثير ما كمن فى نفوسهم من وطنية وقومية ؛ وسيرى كل تلميذ فى هؤلاء العظماء مثلا عاليا يود لو يحققه ليكتب له الوطن والتاريخ مثل ما كتب لهم من مجد وخلود .

ثم يجب أن يدرس التلاميذ بعد ذلك فى المدارس الثانوية كل عصور النهضة فى التاريخ المصرى القديم والحديث ، وتترك الدراسة الشاملة لعصور الضعف والانحلال ، وعصور القوة والعظمة للطلبة فى التعليم العالى ، فمعرفتهم لهذه العصور فى مثل هذه السن لا تؤثر فى وطنيتهم ولا فى احترامهم لمصر ولأنفسهم ، ثم هم يستطيعون أن يعرفوا طبيعة الشعب المصرى والظروف التى رمت به فى كل مرة فى أحضان الاحتلال .

قرأت أن امبراطور ألمانيا السابق دخل فصلا فى مدرسة أطفال فسمع المدرس يقول لهم : إن ألمانيا كانت عدة ولايات متفرقة . فوقف الامبراطور وقال لهم : "إن هذا الكلام غير صحيح وألمانيا لم تكن فى يوم ما ولايات ، بل خلقت كما هى الآن أمة متحدة عظيمة" وبعد انتهاء الدرس قال للمدرس : "إن هؤلاء الأطفال يجب ألا يعرفوا عن بلادهم إلا العظمة والقوة منذ أن نشأت ، ويجب أن تترك الدراسة التفصيلية لطلبة الجامعات" .

هذا هو رأى الألمان فى دراسة التاريخ ، ولكن النظرية الأمريكية على نقيضه ، فهى تقول بوجوب دراسة التاريخ كما هو ، وألا يتأثر بالعاطفة القومية ، لأن اتصاله بهذه الناحية يعلم كل تلميذ أن بلاده يجب أن تسود العالم ، فاذا شب هؤلاء التلاميذ رغبوا فى تحقيق ما تعلموه فتشتعل نيران الحرب وينشأ التطاحن بين الدول .

وقد نشأت هذه النظرية عند الأمريكيين لأنهم فى قارة بعيدة منفصلة عن العالم ، وليسوا مهددين دائما بالإغارة عليهم واحتلالهم ؛ ولو كانوا فى أوربا أو لو كان موقع بلادهم كموقع مصر مهددا دائما بالإغارة عليها من كثير من الدول لما نشأت عندهم هذه النظرية .

وليس من الضرورى أن يتعلم تلاميذ أن بلادهم يجب أن تسود العالم ، ولكن يجب أن يفحص بمصل ضد أى احتلال ليستطيعوا أن يقاوموا غارات المعتدين على استقلال بلادهم وحريتهم ، وأن يعيشوا معتزين بقوميتهم وكرامتهم ما

حميدة قطب